جمالية الخطاب في الأدب الصوفي قصيدة أحبك حبين لرابعة العدوية أنموذجا

ط/د. قادة بن سلطان صفية

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية

د. عمر برداوي

جامعة البليدة 2

الملخص :

نحاول في هذا المقال إبراز مواطن الجمال والإبداع في الخطاب الشعري القديم، من خلال مقاربة قصيدة أحبك حبين لرابعة العدوية وفق آليات وإجراءات المنهج الأسلوبي، والذي يعتمد في الأصل على المستويات اللغوية لتحليل الخطاب، أولها المستوى الصوتي الإيقاعي، والذي يعنى بدراسة الأصوات الداخلية من نبر وإيقاع وجرس موسيقي، ثم الموسيقى الخارجية الوزن والقافية ودلالتها في النص، ثم المستوى التركيبي الذي يعنى بإحصاء الأسماء والأفعال المتكررة ودلالتها، وأخيرا المستوى الدلالي التصويري الذي يبحث في الانزياحات اللغوية من صور بيانية ومجازات، دون أن ننسى الحقول الدلالية التي اعتمدتها الشاعرة في القصيدة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الصوفي؛ الأسلوبية ؛المقاربة الأسلوبية ؛ قصيدة أحبك حبين؛ رابعة العدوية.

Abstract

In this article we try to highlight the beauty and creativity in the ancient poetic discourse, through the approach of the poem I love you love to the fourth aggression according to the mechanisms and procedures of the stylistic method, which originally depends on the linguistic levels of discourse analysis, the first level of rhythmic audio, then the synthesis level, and finally the semantic photogrammetry

Key words: Sofi discourse; stylistic; stylistic approach; poem OHIBOKA HOBAYN; Rabia Al ADAWIA

مقدمة:

تعد قصيدة أحبك حبين من أشهر وأجمل أعمال الشاعرة الصوفية رابعة العدوية، لما تحمله من أجمل كلمات وأبلغ العبارات حيث تبدع الشاعرة في وصف حبها الرباني.

تمتاز القصيدة برقي اللغة وجمال العبارة، والأسلوبية تبحث في السمات والأسلوب ومواطن الجمال في النصوص الأدبية، لذا وقع اختيارنا للقصيدة لما تحمله من خصائص وسمات أسلوبية جمالية.

يهدف هذا المقال إلى مقاربة الخطاب الأدبي الصوفي عن طريق تحليل قصيدة أحبك حبين وفق آليات وإجراءات أسلوبية.

من هنا نطرح الاشكالية التالية: فيم تكمن جمالية قصيدة أحبك حبين لرابعة العدوية؟ وكيف يمكن مقاربة الخطابات الأدبية الصوفية وفق آليات المناهج النقدية المعاصرة؟

الخطاب الصوفي:

يعرف بن خلدون الصوفية على " أنها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها "[1]، كما يعتبر الإمام أبو حامد الغزالي الصوفية "أن أخص خصائصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال"[2]، فالذوق أهم ما ميز الخطاب الصوفي عن غيره من الخطابات.

يقال "إن الخطاب الصوفي لا يقوم على مبدأ العقل والمعقول وإنما يعتمد على الذوق الذي يقوى عند واحد ويضعف عند آخر وفاقده "، لو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق لم يقدروا عليه لتفهيمه معنى الذوق" وهو ما يسميه المتصوفة "مالا يقال"، أي يتذوق ولا يمكن نقله باللغة إلى الآخر "[3]، ومن هنا يمكن تمييز بعدة

خصائص أبرزها الرمز واللغة الصوفية التي يتفق عليها أغلب كتاب الصوفية.

خصائص الخطاب الصوفي:

توجد عدة خصائص ومميزات تميز الخطاب الصوفي عن غيره من الخطابات ولعل أبرزها ما يلي:

1. اللغة الصوفية:

تعتبر اللغة الصوفية لغة رمزية مجازية ذات دلالات كثيرة، قابلة لأكثر من تأويل تتميز بالتخييل والتمثيل والتشبيه، لهذا فهي عينة بلاغية خصبة إذا كانت اللغة عند سوسير نظاما من الإشارات التي تعبر عن الأفكار، فإن المتصوفة استخدموا في لغتهم واستعاراتهم إشارات ودلالات تختلف عن استعارات ودلالات الأدب الفلسفة السياسة.. . الخ [4]"، وتشكل هذه الاستعارات في تركيبها وتكوينها سياقا خاصا فيه مفردات وجمل متميزة فتصبح لكل مفردة دلالة ولكل جملة حجة "[5].

ومن هنا يمكن القول إن الشعر عند الصوفية يعتمد على لغة اللغة (لغة الرمز والإشارات) فهي لغة خارج اللغة المتداولة وبعيدة عنها وفوق اللغة الافهامية الموجهة للعامة.[6]

يتميز الخطاب الصوفي بتوظيف الرمز وهو نوعان: رمز يكون عن اتفاق ومواضعة، ورمز مصدره الحالة الباطنية التي يكون فيها الشاعر الصوفي لا تكتسي طابعا وجدانيا فحسب، بل تتعداه إلى المعارف والأسرار الروحية والشاعر الصوفي يبني خطابه على الرمز القائم على الباطن ما يجعل المتلقي في فضاءات قرائية كثيرة وتأويلات قد يحاكم بها شعراء الصوفية عامة [7].

2. الحب الإلهي:

يعد من أبرز ما ميز شعراء الصوفية وخاصة "رابعة العدوية"، ما يسمى بـ"الحب الإلهي" حيث : "يعتبر الحب الإلهي جوهر التجربة الصوفية وغايته... فالتصوف غايته المحبة ووسيلته المحبة "[8].

3. السكر الصوفي:

السكر الصوفي ليس سكرا ماديا يذهب العقل ويثقل الحواس، وإنما هو حال من الدهشة التي تعتري المرء فتجعله يذهل عن كل شيء عدا المحبوب وهو عند أهل الحق " غيبة بوارد قوي وهو يعطي الطرب والالتذاذ"، والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد[9].

أعلام الأدب الصوفي:

يوجد الكثير ممن اشتهر بالتصوف والكتابة الصوفية ومن أبرز الأسماء ما يلي:

- الحسن البصري(ت 110هـ)، وهو الذي يعد رائدا للتصوف المشرقي.
- رابعة العدوية (ت 185هـ).
- المحاسبي (ت 243هـ).
- شقران القيرواني أبرز رائد في الطريقة الصوفية.
- ذو النون المصري (ت 245هـ)، أخذ طريقة أبي علي شقران وأشرب مذهبه الصوفي وتعلم عنه أصول الطريقة، وعندما عاد إلى مصر ظل يردد أقوال سيده ويذكر صفاته ويعدد خصاله.[10]
- أبو يزيد البسطامي(ت260هـ).
- التستري (ت 273هـ).
- الجنيد (ت 298هـ).
- الحلاج (ت 309هـ).
- أبو بكر الشلبي(ت 338هـ).

- ابن الفارض.
- ابن العربي.
- جلال الدين الرومي.
- أبو مدين شعيب التلمساني.

رابـــعة العدويـــة :

هي البصرية بنت إسماعيل مولاة آل عتيك من بني عدوة، وقد اشتهرت في التاريخ بما قدمته من زهد وورع ومعرفة لربها، وقد كان لمجاهدتها نفسها أثر عظيم في حقل الدعوة إلى الله بالقدوة والعمل الصالح.

ولدت بالبصرة وجاءت بعد ثلاث بنات فسماها "رابعة" وكانت رائعة الجمال فاتنة، ورغم ذلك لم تتزوج، ليس إعراضا ولكن لانشغالها بحلاوة العبادة والقرب من الله ومخافة أن تقصر في حق زوجها،

من آثارها شعر كثير في الزهد والشوق إلى الله منه:

أللزاد أبكي ؟ أم لطول مسافتي
وزادي قليل وما أراه مبلغي
فأين ردائي فيك؟ أين مخافتي؟
أتحرقني بالنار يا غاية المنى

ومن أقوالها حينما كان يغلبها النوم :"يا نفس كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور"

ومن أقوالها حين يجن الليل ويرخي ستوره:" إلـهي هدأت الأصوات وسكنت الحركات وخلا كل حبيب بحبيبه وقد خلوت بك أيها المحبوب فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار".

خرجت رابعة من الحياة بعد أن بلغت الثمانين من عمرها وقد ذاقت ما ذاقت من البلاء لكنها تمتعت بالأنس بالله والفرح بطاعته وكانت وفاتها سنة ثمانين ومائة وقيل خمس وثمانين ومائة، ودفنت بالقدس وقبرها على رأس جبل طور.[11]

قصيدة "أحبك حبين" لرابعة العدوية:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك
وأغلقت قلبي عمن سواك
وكنت أناجيك يا من ترى
خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاك
أحبك حبين.. حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاك
وأشتاق شوقين.. شوق النوى
وشوق لقرب الخلي من حماك
فأما الذي هو شوق النوى
فمسري الدموع لطول نواك
وأما اشتياق لقرب الحمى
فنار حياة خبت في ضياك
ولست على الشجو أشكو الهوى
رضيت بما شئت لي في هداكا

ومن روائعها أيضا:

فليتك تحلو والحياة ريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح الود فيك فالكل هين

وكل الذي فوق التراب تراب[12].

تحليل قصيدة "أحبك حبين" أسلوبيا:

قبل البدء في التحليل لابد من أن ننوه إلى أن تحليل النصوص وفق المناهج المعاصرة قد تنوع من محلل لآخر، فقد نجد أحد المحللين يستخدم طريقة التحليل وفق "منهج الكلمات المفاتيح "، وآخر يستعمل "منهج البؤرة الدلالية"، وآخر يستعمل "المستويات" وسنعمل على تحليل القصيدة وفق هذا الأخير.

المستوى التركيبي:

ترمي الأسلوبية إلى فحص النص الأدبي في تراكيبه اللغوية للكشف عن القيم الجمالية التي تكمن خلفها، والاختيار من النظرة الأسلوبية كذلك أما أن يكون خاضعا لإرادة المنشئ أو واقعا لا خيار فيه للمنشأ.

كما أن دراسة هذه التراكيب المتعلقة باختيار المنشئ وحريته يبين مواطن التغير الذي من شأنه الكشف عن الأسلوب الذي يوضح قدرات المنشأ التعبيرية، وطاقته اللغوية التي يصدر عنها النص الأدبي.[13]

يمثل التحليل التركيبي أحد مستويات التحليل اللغوي للنص الأدبي، ومن أجل البحث عن الخصائص المميزة لمؤلف معين فان الدارس الأسلوبي يعرض لجملة من المسائل التي ينطلق فيها من النص والتي منها:

- طول الجملة وقصرها.
- الصلة.
- العدد.
- التعريف والتنكير.
- التذكير والتأنيث.
- الروابط.
- الزمن.[14]

طول الجملة وقصرها:

تميزت قصيدة رابعة العدوية بالكثافة الشعورية من خلال تنوع تمايز طول الجمل في قصيدتها ما بين الجمل الطويلة كقولها:

وكنت أناجيك يا من ترى

خفايا القلوب ولسنا نراك

والجمل القصيرة في قولها:

"أحبك حبين/ أشتاق شوقين".

وهذا ما زاد من جمالية القصيدة وتميزها.

الصلة (أسماء الموصول):

ورد الاسم الموصول في القصيدة بعدد قليل نذكر منه قول رابعة العدوية:

"عمن سواك/ يا من ترى خفايا القلوب/فأما الذي هو حب الهوى/ وأما الذي أنت أهل له"

العدد:

رابعة العدوية في قصيدتها تخاطب الذات الإلهية، فهي تستخدم في ذلك ضمير الغائب المفرد "هو" وتخاطبه مستعملة ضمير المتكلم "أنت" في قولها: "وأما الذي أنت أهل له"

كما استعملت المثنى في قولها:" أحبك حبين / أشتاق شوقين"، مما زاد في جمالية القصيدة وشعريتها.

التعريف والتنكير:

استعملت الشاعرة رابعة العدوية في قصيدها التعريف بـ"ال" في قولها:" الهوى/ الشجو/القلوب"

كما استخدمت كذلك التعريف بالإضافة في قولها: "قلبي/ سواك/ضياك/ هداك".

التذكير والتأنيث:

في القصيدة تنوعت الأسماء بين المذكر والمؤنث كما يلي:

المذكر:

الهوى/الحب/الحجب/الشجو/القلب/الشوق.

المؤنث: الحياة/ النوى/ الدموع.

وقد غلب المذكر على المؤنث في القصيدة، وقد دل ذلك على سلطة الذات الإلهية في القصيدة.

الروابط:

القصيدة تتكون من "أحد عشر" بيتا، حاولت رابعة العدوية ربط هذه الأبيات بضمير المتصل "الكاف" في نهاية كل بيت، يتضح ذلك في قولها: "سواك. نراك... "

ومنه يعتبر الضمير المتصل " الكاف" رابطا قويا يجمع أبيات القصيدة فيوحدها في شكلها العمودي وموضوعها الواحد، النواة خطاب المولى تعالى والتضرع إليه والحب الإلهي الصادق.

كما استخدمت روابط أخرى مثل: حرف العطف "الواو" الذي تكرر اثنتا عشر مرة بمعدل مرة في كل بيت تقريبا، وكذلك الروابط التالية:" ف/على/بـ/ك/لـ/من/هو/ذا/لكن/في/... ".

الزمن:

استخدمت رابعة العدوية في قصيدتها صيغا متنوعة تمازجت بين الماضي والمضارع كما يلي:

الماضي: عرفت/كنت/رضيت.

المضارع:

أحبك/أشتاق/أغلقت/أناجيك/ترى/نراك/أشكو.

نلاحظ أن الشاعرة قد وظفت الأفعال المضارعة أكثر من الأفعال الماضية، مما يوحي باستمرارية وحركية القصيدة، فالأسماء كانت كثيرة مقارنة مع الأفعال، غير أن الأفعال جاءت في أول القصيدة وآخرها لذا كانت أقوى فالحب هنا متجدد ولكنه في الأعماق ثابت.

المستوى الإيقاعي:

لا يختلف اثنان في أن موسيقى الشعر منبع سحره وسر جماله ومظهر تميزه عن سائر فنون القول، فهي أول ما يطرق الأسماع فتشدها وتتسلل إلى القلوب فتأسرها زمنا طويلا[15].

ويمكننا الحديث عن جانبين للموسيقى في أي عمل شعري هما: الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية ويسميها آخرون موسيقى الإطار وموسيقى الحشو.[16]

يرتكز التحليل الصوتي للأسلوب على:

- الوقف.
- الوزن.
- القافية.
- النبر.

ففي هذا المستوى يمكن دراسة الإيقاع والعناصر التي تعمل على تشكيله والأثر الجمالي الذي يحدثه.. . كذلك يمكن دراسة تكرار الأصوات، والدلالات الموحية التي تنتج عنه.[17]

الوقف:

كل بيت من القصيدة عبارة عن تدفق شعوري يتوقف عند قافية مطلقة، فالشاعرة رابعة العدوية تقف عند كل بيت لتواصل قذفها الشعوري في البيت الموالي في تسلسل منطقي وسلس للأفكار والأحاسيس.

الوزن:

القصيدة من بحر "المتقارب"

عن المتقارب قال الخليل

فعولن فعولن فعولن فعولن

يتميز البحر بتسارع وتيرته الإيقاعية وهي وتيرة متسارعة لموضوع الحب الإلهي، حب الشاعرة لله حبا غير اعتيادي.

تتكون تفعيلة المتقارب "فعولن" من وتد مجموع "فعو//0" وسبب خفيف "لن/0"، هذا التنوع زاد من جمالية القصيدة فالصعود والنزول في الإيقاع يوحي بالمناجاة الإلهية والالتماس والحب الإلهي الخالص.

تتميز تفعيلة "فعولن" بتدفق صوتي مميز وقد وفقت الشاعرة في اختيار البحر لتناسبه مع موضوع القصيدة "الحب".

القافية:

استعملت الشاعرة قافية موحدة مطلقة، واستخدمت حرف الروي الكاف يتجلى ذلك في قولها:

"سواك/ نراك/ أراك/ ضياك/هداك/..." "سواك //0/0"فعولن القافية مطلقة.

حرف الروي "الكاف" صوت مهموس، تخرج من أعماق رابعة العدوية مشاعر صادقة والتماس بالحب والعفو الانكسار.

النبر:

تتكون كلمة "حب" نواة القصيدة من حرف "الحاء" وحرف "الباء" المضعف، يتميز حرف الحاء بأنه صوت مهموس مخرجه الحلق "العمق"، أما حرف الباء فهو صوت انفجاري مخرجه الشفة أي "السطح"، وكأن الشاعرة تخرج كل معاني الحب من أعماق قلبها لتبوح بها إلى المحبوب "الله".

المستوى الدلالي:

في هذا المستوى يمكن دراسة:

- الكلمات المفاتيح.
- الاختيار.
- البديع ودوره الموسيقي.[18]
- المعجم الدلالي.
- الانزياح.

الحقول الدلالية:

الحقل المعجمي لكلمة "الحب" وقد شمل في طياته:" الهوى /قلبي/الشوق".

الانزياح:

لم تستعمل الشاعرة المجازات والصور البيانية إلا في حالات خاصة، لأنها اعتمدت الطريقة المباشرة أي التصريح المباشر المكشوف للحب الإلهي فالمحبوب قريب هو "الله".

أما الانزياح الدلالي الوحيد بارز في قولها: "أحبك حبين" فالحب المعتاد هو الحب بين البشر، لكن هذا الحب هو حب للإله (الحب الصوفي) وهو يختلف عن حب البشر.

الاختيار:

كانت الشاعرة رابعة العدوية دقيقة في اختياراتها، لأنها اختارت ألفاظ تدل على الحب والهوى ما يتناسب مع موضوع القصيدة.

البديع:

أبرز مظاهر البديع في القصيدة تجلى في "التصريع "في البيت الأول من القصيدة في قولها:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك

وأغلقت قلبي عمن سواك

وكذلك "التوازي" في قولها:"

الهوى/النوى/الحمى/ترى."

وقولها: "سواك/نراك/لذاك".

أما عن "الجناس" الناقص في قولها:

"هواك/سواك".

خاتمة:

في ختام هذا البحث يمكن استخلاص النتائج التالية:

•يعد الخطاب الصوفي من أشهر الخطابات الأدبية والفنية التي ظلت راسخة في الأذهان إلى يومنا هذا

•تعد رابعة العدوية من أبرز الشعراء الصوفيين فقد أبدعت في قصيدتها " أحبك حبين" ، وصورت فيها أجمل العبارات وأبهى الصور

•إن خطاب رابعة " قصيدة أحبك حبين" تحمل الكثير من السمات الفنية الأسلوبية التي زادت من جماليتها وأبرزت صورها الدلالية التي توحي بالبعد الصوفي عند رابعة العدوية

الهوامش

[1] ابن خلدون، المقدمة ، المطبعة البهية، طبعة القاهرة، د.ت ، ص 328.

[2]الإمام أبو حامد الغزالي، المنفذ من الضلال ، طبعة القاهرة، 1316هـ ، ص 31.

[3] أحمد بوزيان ، بلاغة الصمت في الخطاب الصوفي قراءة في مذاق البدايات ، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة الجزائر، العدد الثامن عشر ، جوان 2013.

[4]شريف هزاع شريف ، المعنى والتأويل في الخطاب الصوفي عند الحلاج.

[5]امبريتو ايكو، القارئ في الحكاية ، ص 21.

[6]أحمد حاجي ، مدخل إلى نظرية النقد الصوفي فجوات النص وهندسة الخطاب ، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح ورقلة /الجزائر ، العدد الثالث ، ديسمبر 2012، ص 225.

[7]احمد حاجي، مدخل إلى نظرية النقد الصوفي، ص 234/233.

[8] عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي في الشعر المغربي القديم، مجلة الأثر ، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، العدد الخامس، مارس 2006، ص 246.

[9]عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي في الشعر المغربي القديم، ص 249.

[10]ينظر: نفسه، ص 242.

[11]ينظر : موقع نسيم الشام
.www.naseemalsham.com

[12] نادية شريف، رابعة العدوية.. الزاهدة صاحبة الروائع الشعرية، موقع جواهر الشروق
http://jawahir.echoroukonline.com

[13]انظر: يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ط2، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن:2010، ص 271.

[14]يوسف أبو العدوس ، الأسلوبية ، ص50-51.

[15]محمد بن يحي، السمات الأسلوبية في الخطاب الشعري، ط1، عالم الكتب الحديث، اربد:2011.ص 49.

[16]يوسف أبو العدوس، الأسلوبية ،. ص 256.

[17]يوسف أبو العدوس الأسلوبية الرؤية والتطبيق ص50.

[18]يوسف أبو العدوس، الأسلوبية، ص 51.